المنهجُ التاريخيُّ والمنهج المقارن
مقاربات ومفاهيم

Historical approach and comparative approach
Approaches and concepts

د.عدي حسين علي

Dr. Udy Hussein Ali

ملخص البحث

تناولَ البحث مصطلحي (المنهج التاريخي ، والمنهج المقارن) ، وهذان المصطلحان كانا ومازالا عرضة للبحث والدراسة ، فكان من الواجب أنْ نعالج هذه المصطلحات معالجة علمية ، بعد استعراض مفهوم المنهج التاريخي والمنهج المقارن على وفق الدراسات اللغوية الحديثة وخلص البحث الى ان الدرس المقارن ما زال درساً خجولاً لا يلبي الطموح ، بسبب تركيز الباحثين على جوانب وإهمال جوانب أخرى مهمة ، كالعلاقات التاريخية والأجناسية والعرقية التي تؤثر تأثيراً مباشراً في المنهج المقارن وخصائصه وعناصره ، ابتداءً باصطلاحه وانتهاءً بكل ما يتعلق به.

Abstract

Keywords: linguistic Studies / Historical Approach / Comparative Methodology

This paper deals with the terms of (historical approach and comparative approach)which are subjected to study and research .

It was necessary to deal with these terms in a scientific way. After reviewing the concept of the historical approach and the comparative approach according to modern linguistic studies, The research concluded that the comparative approach is still below expectations and does not meet ambition, because researchers focus on certain aspects and neglect other important ones, such as historical, ethnic and racial relations that directly affect the comparative approach and its characteristics and elements, starting with its concepts and ending with everything related to it.

المقدمة

مدخلٌ

امتازتِ الدراساتُ اللغوية الحديثة بكثرة موضوعاتها وعنواناتها وتعدّد مناحيها واتجاهاتها ، ولاسيّما بعد ظهور العلوم والمناهج والمصطلحات الحديثة ، التي رفدت علم اللغة الحديث بالقواعد والنظريات والأفكار التي ملأت رفوف المكتبات ، وأغنت العقول بما أنتجته في السابق ، وكان من بين هذه المصطلحات مصطلحا: المنهج التاريخي والمنهج المقارن.

إنّ هذين المصطلحين قد أخذا أبعادًا واسعة بين الدراسات اللغوية المختلفة قديماً وحديثاً ، إلّا أنّ مفهومهما العلمي المقنّن قد بدأ يأخذ ملامحه الواضحة عن طريق علم اللغة الحديث ، فالاهتمام بالمصطلح يزداد من زمان إلى آخر ، وتفصيل العلوم وتجزئتها سمة حديثة للبحث العلمي ، إذ لا يخفى على أحد أنّ بواكير العلوم لم تكن تولي المصطلح الأهمية التي يتمتع بها في الوقت الحاضر ، والمعلوم أنّ دلالة لفظه أو حقيقته اللغوية تكشف عن مفهومه الدلالي ، فهو من (صَلُحَ) أو (صَلَحَ) وهو نقيض الفساد[١]، وهو الشيء النافع والمناسب والحسن[٢]، وتطابقًا لدلالته هذه يجب أنْ يكون هناك مصطلح يرمز إلى مفاهيم جليّة المعالم ، ولا شكّ أنّ المصطلح يجب أنْ يكون مختصرَ اللفظِ شاملَ الفكرةِ ، ويتضح لي أنّ المصطلح لم يكن ذا أهمية قصوى لدى قدماء المؤلفين ، فكتاب سيبويه قد احتوى عنوانات طويلة اختُصرت فيما بعد بكلمة أو اثنتين ، وهناك مصطلحات لم تدلّ على محتواها الصحيح ، كالكتب التي تحمل عنوان (الجمل) التي تضمّنت مباحث صرفية وصوتية ، كما أن هناك عنوانات تذهب بالقارئ إلى فهم خاطئ كـ(إصلاح المنطق) لابن السكيت (٢٤٤هـ)، إذ يشعرك أنّه كتاب في علم المنطق ، بيدَ أنّه كتاب في الضبط اللغوي.

خلاصة ذلك أنّ البحث تناول مصطلحي (المنهج التاريخي ، والمنهج المقارن) ، وهذان المصطلحان كانا ومازالا عرضة للبحث والدراسة ، فكان من الواجب أنْ نعالج هذه المصطلحات معالجة علمية ، بعد استعراض مفهوم المنهج التاريخي والمنهج المقارن على وفق الدراسات اللغوية الحديثة.

المنهج التاريخي

هو وصف اللغة ببيان ما طرأ عليها من تغييرات ، في استعمالها زماناً ومكاناً، فهو يراقب تطور ظاهرة لغوية ما ، ويرسم خطها البياني من حيث الاستعمال ، وما يتعلق بها من جوانب تهتم بقلة استعمال الظاهرة وكثرتها ، وحياتها وموتها مع بيان مجموعة قوانين تحكم هذه الظاهرة[٣]، فهذا التعاقب الزمكاني في الحالة اللغوية قد أطلق عليه دي سوسير مصطلح (علم اللغة الدايكروني) [٤]، ومصطلح دايكروني (diachronic) قد أخذه دي سوسير من: (dia) ، وتعني (عبر) أو(خلال) ، و(chronic) المأخوذة من الكلمة اللاتينية (crone) التي تعني: زمن ، وبذلك يكون معنى الاصطلاح: (عبر الزمن) ، أو (متعاقب) [٥] .

ومصطلح تعاقبية أو تعاقبي اصطلحته اللسانيات الفرنسية على علم اللغة التاريخي[٦]، وهذه التعاقبية في اللغة من حيث الاختلاف والتشابه تجعله ذا فاعلية مستمرة (Dynamic) [٧]، وباستعمال المقارنات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بين التراكيب والألفاظ المختلفة في أماكن وأزمان مختلفة ومتشابهة

يتبلور علم اللغة التاريخي.

هناك تساؤل أجد من الضرورة الإجابة عنه ، وهو: هل علم اللغة التاريخي يرادف تماماً المنهج التاريخي ، وما مدى التقارب بين لفظتي (علم) و(منهج)؟ فالدراسات المختصة فيما أرى استعملت المصطلحين بالدلالة والمفهوم نفسه ، ولا بدّ من أنْ نضع تمييزاً واضحاً بين المصطلحين ، فمصطلح العلم يعني «مجموعة مسائل وأصول تجمعها جهة واحدة ، كعلم الكلام ، وعلم النحو ، وعلم الأرض ، وعلم الكونيات ...» [٨] .

أمّا المنهج فهو الطريق الواضح المستقيم[٩]، فإذا كان العلم ذا مسائل وأصول تجمعها صفة واحدة ، فإنّ المنهج بدلالته المعجمية يكون أشمل وأوسع من العلم ، لذا تستعمل الدراسات اللغوية مصطلح علم اللغة التاريخي ، ولم أجد من يقول المنهج اللغوي التاريخي ؛ لأنّ المنهج التاريخي يخدم علم اللغة وغيرها من العلوم، الأمر الذي يجعل استعمال مصطلح علم اللغة التاريخي أكثر قبولاً من استعمال المنهج التاريخي ، شريطة أنّ استعمال مصطلح المنهج التاريخي في استعمال اللغة يجب أنْ يأخذ أبعاداً ومناحي أخرى غير التعاقب والتطور والاختلاف اللغوي من حيث الزمان والمكان ، لذا فأزعم أنّ مصطلح المنهج التاريخي يجب أنْ يأخذ مجالًا أوسع ، لئلا يؤدي التضييق إلى انحسار هذا المصطلح.

ولمّا كان المفهوم التاريخي يقف عند عنصري الزمان والمكان ، فهو بذلك يحوي كثيرًا من المتعلقات اللغوية التي لم يشر إليها علم اللغة التاريخي ، ومن هذه المتعلقات المصطلحات اللغوية ، والدراسات ذات العلاقة ، والأفكار والمفاهيم التي خضعت للتطور والتغير في الزمن ، فضلاً عن علاقة علم اللغة بالعلوم الأخرى التي تزدهر بين حقبة وأخرى وبلدة وغيرها ، فطريقة التفكير في القرن الأول الهجري تختلف تماماً عنها في القرن الرابع الهجري ، كما أنّ البصرة ليست الكوفة ولا المدينة كالشام ، فهذه المفاهيم إذا ما اجتمعت مع علم اللغة التاريخي قد نستطيع أنْ نطلق عليها مصطلح المنهج التاريخي.

إنّ نشأة هذا المصطلح بدأت مع ظهور الدراسات التاريخية للغة ، وذلك عند وليم جونز القاضي الإنجليزي في المحكمة العليا بالبنغال عام (١٧٨٦م) ، الذي ترجم كتاب (الفيدا) المكتوب باللغة السنسكريتية ، وقد ألّف هذا الكتاب العالم الهندي بانيني ، إذ احتوى على قواعد اللغة السنسكريتية الصوتية والصرفية والنحوية، فأهدى هذه اللغة إلى أوربا ، ووصفها بأنّها لغة أكمل من الإغريقية وأغنى من اللاتينية ، لكنها تتصل بهما اتصالًا وثيقًا ، فكان ذلك الإشارةَ الحديثةَ الأولى للدراسات التاريخية المقارنة[١٠] .

وهذا ما يوضح أنّ الدرس التاريخي في بدايته كان درساً تاريخياً مقارناً ، بل عُدّ الدرسُ المقارنُ جزءًا من الدرس التاريخي لحقبة من الزمن ، وانفصل الدرسان بعضهما عن بعض على يد جريم (١٧٨٠م-١٧٦٣م) الذي يعد مؤسساً لعلم اللغة التاريخي[١١] .

إنّ التطور التاريخي للغة يفصل بين السمة العامة للغة المكتملة ذات الصفات النموذجية التي يتفق عليها المتحدثون بها وبين التغيرات التي تحدث فيها بين زمن وآخر أو مكان وغيره ، فهي بطبيعة حالها كائن حي ، كما يصفها جرجي زيدان لها نواميس الحياة من نمو وتجدد وتولد[١٢]، وبذلك يكون علم اللغة التاريخي قد خضع لمحاور أساسية في تكوينه

، وهي:

١ـ الظهور والاندثار.

٢ـ الشيوع والانحسار.

٣ـ الإقراض والاقتراض.

٤ـ القبول والاستقباح.

وهذه المحاور لم يستغن الدرس اللغوي المبكر عنها ، فكان قبول تركيب ما دون آخر أنْ يلتزم بهذه القواعد ، لذا عُدَّ الخروج عن القواعد الأساسية للغة وما يتعلق بها من تطورات مقبولة خروجاً عن قانونها ومألوفها ، ممّا جعل حركة التصحيح اللغوي تأخذ جانباً مهماً من مضامين علم اللغة التاريخي[١٣].

إنّ للمنهج التاريخي بشكله العام علاقاتٍ تربطه بمجموعة من المناهج ، ولاسيما اللغوية منها ، فعلاقة المنهج التاريخي بالمنهج المقارن علاقة تبادلية ، ولست مع فندريس في جعل المنهج المقارن امتداداً للمنهج التاريخي [١٤]، فمقياس المكان والزمان في تحديد قرابة لغوية ما بين لغتين شقيقتين يقابله تحديد نوع الألفاظ أو التراكيب المقترضة بين اللغتين اللتين تنتميان إلى أرومة لغوية واحدة ، وهذا يجعل المنهجين متساويين في اعتماد بعضهما على بعض.

إن ذلك التقارب لا يجعل المنهج التاريخيّ في منأى عن بقية المناهج ، ولاسيّما المنهج الوصفي الذي يُعدُّ أساسًا في تكوين المنهج التاريخي ، فالأخير لا يستغني عن مبدأ الوصف ، إذ إنّ تتبع الظاهرة تاريخياً لا يمكن عرضها إلّا عن طريق الوصف ، فهو الطريقة التي يلجأ إليها الدارس أولاً ، ثم يزيد عليها مكملات المحاور التاريخية للظاهرة اللغوية[١٥].

أمّا علاقة المنهج التاريخي بالمنهج التقابلي فقد وُصفت بأنّها غير موجودة ، وأنّ علم اللغة التقابلي لا شأن له بالاهتمامات التاريخية ، فدراسة اللغة على وفق المنهج التقابلي ترمي إلى تعلم اللغتين المتقابلتين ، ولاسيما أنّه يختص بدراسة اللغات غير المنضوية تحت الأسرة اللغوية الواحدة[١٦] ، وأظن أنّ هذا الرأي ليس فيه تمام الصحة ، فالدراسة بين العربية والكردية أو التركية أو الفارسية دراسة تقابلية ، وأنّ هناك امتداداتٍ تاريخية بين هذه اللغات وغيرها من اللغات الأفريقية والهندو أوربية إذا ما درست ، فلا يمكن أن تخرج عن منهجها التقابلي ، فضلاً عن الاعتماد على المنهج التاريخي في تحديد هذه العلاقات ، ولا أجد استغناء التقابلي عن التاريخ أمراً مقبولاً.

أمّا المنهج الذي قد يستغني عن المنهج التاريخي فهو المنهج الإحصائي الذي يهتم بالظواهر اللغوية الأكثر شيوعاً في اللغة الواحدة ، من خلال إحصاء مجموعة من المفردات والتراكيب من حيث الاستعمال[١٧] ، وهذا النوع من الدراسة لا يلجأ فيه الباحث إلى استعمال التاريخ في تدوين ظاهرة لغوية يستعمل فيها نظام الإحصاء ، وقد يشير دارسو اللغة ، على وفق هذا النظام ، إلى ظاهرة أو أكثر تشيع في زمان معين أو مكان ما وهذا وارد جداً ، فيكون المنهج الإحصائي قد استعمل التاريخ في تحديد هذه الظاهرة.

يتضح ممّا تقدّم أنّ المنهج التاريخي له ميزة قد تُفرده عن سائر المناهج وذلك بسبب علاقاته بين المناهج اللغوية المختلفة ، واعتماد المناهج الأخرى عليه في تحديد بعض الظواهر اللغوية ، وأعزو السبب في ذلك إلى السبق التاريخي لاكتشاف هذا المنهج ، وأهمية استعماله ، وكثرة فروعه وموضوعاته في الدراسات المتخصصة.

وهناك حالة لم يعنَ بها المنهج التاريخي ولم يأخذها المختصون بالحسبان ، فالمنهج التاريخي يدرس التغيرات الحاصلة في اللغة التي تميل إلى التخفيف أو الجهد الأقل ، أمّا التراكيب الثابتة في الزمن فلم تأخذ نصيبًا من الدراسة التطورية أو التاريخية ، فعلى الرغم من أنها لم تخضع لقوانين التطور والتغيير لكنّها جديرة بالموازنة بينها وبين الظواهر المتطورة ، فالأسباب التي أدت إلى الثبات هي أسباب تخضع لجوانب شتى من بينها الجانب التاريخي.

إنّ مصطلح المنهج التاريخي مصطلح عامّ ومتداخل ، وتنأى هذه العمومية والتداخل بالمصطلح عن مفهومه الدقيق ، فالتأريخ يستعمل في المنهج الوصفي على وفق اختيار لغة معينة في زمان ومكان معينين ، كما أنّها في المنهج المقارن تقوم باتخاذ لغتين أو أكثر في زمانين ومكانين محددين ، لذا فمصطلح التاريخي لا يوحي على نحوٍ ما بوضوح حالات تغيير البنى اللغوية وتطورها ، ولمّا كان المنهج التاريخي يتتبع مواطن التغيير والتطور فأنا أزيد عليها مواطن الثبات ، كما أُفضّل أنْ يُصطلح عليه بالمنهج التعاقبيّ أو المنهج التتبعيّ.

المنهج المقارن

هو بحث الظاهرة اللغوية في أكثر من لغة ، وهذه اللغات تنتمي إلى أرومة واحدة ، أي أسرة لغوية واحدة ، كالتي اصطُلح عليها بالساميات والحاميات والهندو أوربية وغيرها[١٨]، وتُعَدّ أولى غايات هذا الدرس اللغوي بيان مدى العلاقة بين اللغات الشقيقات ، مع التوصل إلى المديات الزمانية بينها من حيث السبق وطول الحياة ، فضلاً عن مدى تأثّر كل واحدة منها بالأخرى ، وأيّهما أصل والأخرى فرع منها ، ولاسيّما أنّ المدونات التاريخية لم تستطع أنْ تثبت بالدليل القاطع أصالة أو أسبقية أو سنّ كل واحدة منها ، بسبب اعتباطية ظهورها وتطورها في الأزمان المختلفة.

إنّ هناك هدفاً يرنو إليه المختصون في علم اللغة المقارن ،هو تأصيل اللغات والاستدلال على قدمها وحداثتها ، مع تفرد إحداها بأنها أقرب إلى اللغة الأم ، أو بناء أصل مشترك بينها وبين أخواتها للوصول إلى هذه اللغة الافتراضية التي لم يصل إلينا منها نقش أو إشارة أو دليل[١٩] ، وقد تكون افتراضاً خاطئاً ، فلا وجود للغةٍ مشتركة أو لغة أمّ ، فعلى الرغم من اشتراك هذه اللغات بخصائص كثيرة من حيث الأصوات والأبنية والتراكيب والدلالات إلاّ أنّ الإشارات والنظريات والدراسات التاريخية لم تبرهن البتة على أنّ هناك لغة واحدة تفرعت منها مجموع اللغات المسماة بالسامية ، وأظن أنّ هذا السبب هو الذي أبعد اللغويين القدامى عن الخوض في علم اللغة المقارن ، لأنّها قد بنيت على افتراض ليس له واقع ملموس ، وبالمقابل هم ليسوا غير محيطين بهذه اللغات ، ولا كما تصفهم بعض الدراسات بأنهم لم يفطنوا لهذه اللغات[٢٠]، أزعم أنّ لدى جمهرة النحاة دراية كبيرة بهذه اللغات ، فمن أين جاء الخليل بقوله: «وكنعان بن سام بن نوح إليه يُنسب الكنعانيون ، وكانوا يتكلمون بلغة تقارب اللغة العربية» [٢١]، أمّا ابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ) فيقول: «وقد ذهب قوم إلى أنّ الحاء في جملة ما تفرّدت به لغة العرب ، وليس الأمر كذلك ، لأني وجدتها في اللغة السريانية كثيراً ، وحُكي أنّها في اللغة الحبشية أو العبرانية ،

وأمّا العين والصاد والطاء والتاء والقاف فقد تكلم بها غير العرب ، إلا أنها قليل»[٢٢] ، ومثل ذلك قول السيوطي (٩١١هـ): « سين العربية شين في العبرية ، فالسلام شلام ، واللسان لشان ، والاسم اشم»[٢٣] ، فضلاً عن مقارنات كثيرة جدًّا تدلّ على معرفة أصحابها بهذه اللغات ، الأمر الذي جذب انتباهي في بعض الرؤى والأفكار التي تبناها النحويون القدامى منها عود الضمير المقدّر على ظاهر في قولنا: زيدٌ واقفٌ ، وهذا المقدّر يظهر في الجملة الحبشية[٢٤] ، كما أنّ الخبر المقدّر في العربية بـ(موجود أو كائن) لا يحذف في الجملة الأكادية ، ولاسيما مع الظرف أو الجار والمجرور[٢٥]، فضلًا عن تقديرات أخرى كأصل (قال) (قَوَلَ)، و(باع) (بَيَعَ) [٢٦]، وهذه الظاهرة لها أصل في أخوات العربية ، كالفعل (قام) الذي هو (قَوَمَ) في الحبشية والعبرية[٢٧]، وكذلك الفعل (جرى) فهو في الآرامية والسريانية (جَرِيَ) [٢٨] ، ولو تتبعنا الفعل الأجوف أو معتلّ الآخر في المعجمات المقارنة لوجدنا معظمها في هذه اللغات لها أصل يائي أو واوي ، فهذا الأمر يجعل لنا وقفة بأنّ تقديرات قدامى النحاة لم تكن تصوّرية أو انطباعية ، وأظنّ أنّ معرفتهم باللغات الشقيقة للعربية قد جعلتهم يقدرون هذه التقديرات التي لها أصل مذكور في تلك اللغات ، ولطالما استعمل سيبويه لفظة (أرادوا) في أكثر من مئة موضع[٢٩]، أو لفظة (قدّروا) [٣٠] ، وغيرها من الألفاظ التي تبين وجود تقديرات لمفردات لا تظهر في التركيب العربي.

لذلك ليس من الواقعي أن نتّهم القدامى بأنهم لم يفطنوا للدرس المقارن ، بل إنهم لم يعطوه أهمية كبيرة ؛ لابتعاده عن غايتهم الرئيسة في إنشاء علم اللغة آنذاك، ولا أظن أنّ عبد المجيد عابدين كان مصيباً في ما ذهب إليه من أنّ النحويين القدامى كانت لديهم عصبية عمياء ، إذ إنّ هذه اللغات هي لغات كفّار ، فلم يشاؤوا أنْ يساووا بين لغة القرآن ولغة هؤلاء(٣١)، وأرى أنّ عابدين لم يستعن بمصدر ولا بإشارة على ذلك ، لذا لا أرجح صحة هذه الفكرة البتة.

يُعدُّ الدرس المقارن الحديث درساً غربياً من حيث الاصطلاح والقوانين ، وقد ذكرتُ أنّ البداية المنهجية للدرس التاريخي المقارن كانت على يد السير وليم جونز ، إذ اتجهت بعده الدراسات المقارنة اتجاهًا واضح المعالم ، وذلك عن طريق فرانز بوب في كتابه (عن نظام التصريف في اللغة السنسكريتية مقارناً بكل من اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية والجرمانية) ، وكذلك شليگل في كتابه (تاريخ اللسانيات وفقه اللغة الشرقي) ، فضلاً عن بحث صرفي في لغة الهنود نشره في العام ١٨٠٨م، لذلك عُدَّت هذه الدراسات البداية الأولى لظهور المنهج التاريخي المقارن الحديث[٣٢].

وهناك مرحلة مهمة من مراحل علم اللغة التاريخي المقارن لا بدّ من الإشارة إليها ، وهي مرحلة ظهور حجر رشيد ، إذ اكتُشف الحجر في العام ١٧٩٩م عن طريق ضابط في الجيش الفرنسي يدعى (بو سارد) في مكان مجاور لمصبّ فرع النيل ، فقد نُقِش الحجر بمناسبة تتويج بطليموس الخامس أبيفان ملكاً لمصر ، وذلك في شتاء ١٩٦ق.م. ، حيث كُتِبَ نصُّ الحجر أولاً بالقلم الديموطيقي*، ثم تُرجم على الحجر بالخطين الهيروغليفي واليوناني ، وبعد نقل الحجر إلى فرنسا ثم إلى لندن أرسلت صورة منه إلى جامعات أكسفورد وأدنبرج ودوبلين ، ففكّت

رموزه عن طريق الترجمة اليونانية[٣٣] ، فكان الأمر منجزًا تاريخيًّا كبيرًا ، فتح للمستقبل أبواب فك الرموز والترجمات والمقارنات المختلفة عن طريق التأمل والبحث في جميع النقوش والحروف والكتابات الأثرية التي انتقل بها علم اللغة التاريخي والمقارن إلى مرحلة جديدة حديثة ، لها معالمها وقوانينها الخاصة التي انتفع بها الدرس اللغوي الحديث أيّما انتفاع ، وهذا يعني أنّ التاريخ والآثار والتنقيب كانت الأدوات الأولى في ظهور المنهجين المذكورين ، ولاسيما المنهج المقارن.

يُعدّ المنهج المقارن ذا علاقات مختلفة مع المناهج اللغوية الأخرى ، فقد ذكرتُ علاقته التبادلية مع المنهج التاريخي ، وأنّ مسألة الأصل والفرع بينهما تبتعد عن المنطق العلمي أحياناً ، أمّا علاقة المنهج المقارن بالمنهج التقابلي فالعلاقة جدلية إلى أبعد حدّ ، فالمقارنات اللغوية بين الأسرة الواحدة تختلف عن المقارنات بين لغات لا تنتمي إلى أسرة واحدة كحال المنهج التقابلي[٣٤] ، إلّا أنّ الجدل الحاصل بين المنهجين يقوم على أساس أنّ اللغات التي تنتمي لأسرة لغوية واحدة لها أواصر وتقارب أكثر من اللغات غير المنتمية ، فقد وُصفت الفارسية بأنّ نصف ألفاظها من العربية ، وكذلك الكردية والتركية والأردية[٣٥]، فضلاً عن الجانب النحوي والدلالي.

إنّ هذا الأمر يجعل التجاور والتقارب الجغرافي هو العامل الرئيس في هذه التشابهات ، ولكن هناك لغات يبتعد بعضها عن بعض جغرافياً ، كالانجليزية والصينية اللتين لوحظ أنّ لديهما وجه شبه قويًّا في طريقة بناء الكلمات[٣٦] ، فهذه المقاربات بين المقارن والتقابلي تفتح الأفق بين المنهجين للوصول إلى قراءة جديدة تسعى إلى فكّ الجدل بينهما ، والوصول إلى منهج أو أكثر يوضح هذا التشابه والاختلاط في طريقة الدراسة والتحليل ، ولاسيما أنّ هناك لغات لا تُعرف لها أسرة لغوية تنتمي إليها ، وليس لها أي تشابه بأي لغة أخرى ، فهي تحتوي على نظام صوتي وصرفي ونحوي لا يُشابه أي لغة من اللغات ، كلغة الباسك في أسبانيا[٣٧] ، ولغة الزابوتيك في المكسيك[٣٨] ، فهذه اللغات لا تخضع إلى المنهج المقارن ، وربما العثور على منهج مقارب بين المقارن والتقابلي قد يحلّ كثيرًا من الإشكالات ، ولاسيّما أنّ الدرس اللغوي في طبيعة حاله درس متطور ، فالمؤلفات النحوية العربية القديمة والمدارس اللغوية الحديثة تبرهن على مدى حيوية اللغة من حيث التجدد والتغيير ، ولا بأس من إيجاد منهج جديد يرفع الانحسار في المنهج المقارن ويقلل من تشتيت المنهج التقابلي.

أمّا علاقة المنهج المقارن بالمنهج الوصفي فهي علاقة جزئية ، إذ تعتمد المقارنات اللغوية على «القيام بدراسة وصفية مستقلة لكل لغة تُقارن بلغة أو بلغات أخرى[٣٩]» ، في حين أنّ الدراسة الوصفية لا تعتمد على المنهج المقارن إلّا في الضرورة ، فضلاً عن الخلاف الحاصل بين المنهجين ، على اعتبار أنّ أكثر اعتماد المنهج المقارن على اللغة المكتوبة ، في حين يعتمد المنهج الوصفي على اللغة المنطوقة ، فهو يولي الكلام المنطوق أهمية خاصة[٤٠] .

أمّا المنهج الإحصائي فهو ذو طابع خاص ، وتكون علاقته وأهميته بحسب العناية التي يرنو إليها الباحث من خلال دراسته ظاهرةً لغويةً ما ، تمتد صلتها بين

المنهجين المقارن والإحصائي ، وغالباً ما يكون هذا المنهج نافعاً عندما يتعلق بالدراسة المعجمية المقارنة ، وذلك عن طريق إحصاء مجموعة من المفردات من حيث كثرتها وقلتها أو ما شابه ذلك.

إنّ الحديث عن مصطلح المنهج المقارن قد أخذ على عاتقه معرفة الفرق بين المنهج المقارن وعلم اللغة المقارن ، وأزعم أنّ المصطلح الأول أعمّ وأشمل من الثاني ، إلّا أنّ هذه العمومية قد أُهملت أو لم تُعامل على الوجه الصحيح ، فالعالَم المتكون من ستة مليارات يتكلم بما لا يقل عن ستة آلاف لغة ، وهذه اللغات موزعة توزيعًا غير متساوٍ على الكرة الأرضية ، ومعلومٌ أنّ هذا العدد يمثّل الوقت الحالي[٤١]، ولو أننا أحصينا اللغات المنقرضة والمتطورة عن لغات أخرى لزاد على هذا العدد أضعافاً ، وهذه الأعداد من اللغات لها أسر لغوية وأصول وأحداث تاريخية غاية في الأهمية ، يُستدل منها على مجموعة من الحقائق اللغوية والتاريخية التي تخدم المنهج المقارن في البحث ، لذا فهذه المتعلقات غير المنصوص عليها في تعريف المنهج المقارن يجب أنْ يكون لها الاهتمام الواضح في الدراسات المقارنة ، فالدرس المقارن ما زال درساً خجولاً لا يلبي الطموح ، بسبب تركيز الباحثين على جوانب وإهمال جوانب أخرى مهمة ، كالعلاقات التاريخية والأجناسية والعرقية التي تؤثر تأثيراً مباشراً في المنهج المقارن وخصائصه وعناصره ، ابتداءً باصطلاحه وانتهاءً بكل ما يتعلق به.

الهوامش

١- ينظر: لسان العرب (ص ل ح): ٣٨٤/٧

٢- ينظر: المصطلح النحوي (يوخنا ميرزا): ١-٢.

٣- ينظر: المستشرقون والمناهج اللغوية: ٢١ , وفي علم اللغة (غازي مختار طليمات): ١١٨-١١٩.

٤- ينظر: علم اللغة العام: ١٦٣.

٥- ينظر: علم اللغة بين القديم والحديث: ٥٥ , ومباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: ٢٨٧.

٦- ينظر: مفاتيح المصطلحات في اللسانيات: ٤٦.

٧- ينظر: أسس علم اللغة: ١٣٧ , ومقدمة في علم اللغة العربية: ٧٢.

٨- ينظر: المعجم الوسيط (ع ل م): ٦٢٤.

٩- ينظر: لسان العرب (ن هـ ج): ٣٠٠/١٤.

١٠- ينظر: المنهج التاريخي والمنهج المقارن في الدراسات الصرفية والصوتية العربية الحديثة (أطروحة دكتوراه): ١٤-١٥.

١١- ينظر: مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: ١٤٨-١٤٩.

١٢- ينظر: اللغة العربية كائن حي: ٨ - ٩.

١٣- ينظر: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث: ٣٨-٣٩ , ومناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: ١٤٨.

١٤- ينظر: اللغة (فندريس): ٣٧٠ , والمنهج التاريخي والمنهج المقارن في الدراسات الصرفية والصوتية العربية الحديثة (أطروحة دكتوراه): ٢٣.

١٥- ينظر: مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: ١٥٨.

١٦ ينظر: مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: ٢٩٣.

١٧- ينظر: المستشرقون والمناهج اللغوية: ١٥٠.

١٨- ينظر: المستشرقون والمناهج اللغوية: ٤١ , ومناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: ١٦٧.

١٩- ينظر: مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: ١٦٧.

٢٠- ينظر: المنهج التاريخي والمنهج المقارن في الدراسات الصرفية والصوتية العربية الحديثة (أطروحة دكتوراه): ٢٥.

٢١- العين (ك ن ع): ١٥٩٩/٣.

٢٢- سر الفصاحة: ٨٩.

٢٣- المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ٢٧٥/١.

٢٤- ينظر: اللغة العربية وعلاقتها باللغة الإرتيرية: ٥٠٢.

٢٥- ينظر: نظام الجملة في اللغات السامية (أطروحة دكتوراه): ١٨.

٢٦- ينظر: المقتضب: ٢٤١/١.

٢٧- ينظر: معجم مفردات المشترك السامي: ١٢٣.

٢٨- ينظر: معجم مفردات المشترك السامي: ١٣٩.

٢٩- ينظر: الكتاب: ٢٠٣/١ - ٢٠٤ - ٢١٨ - ٣٠٣ ...إلخ.

٣٠- ينظر: الكتاب: ٣٦١/٢.

٣١- ينظر: المدخل إلى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية: ٢٢-٢٣.

٣٢- ينظر: في علم اللغة (د.غالب المطلبي): ١٦ , والمنهج التاريخي والمنهج المقارن في الدراسات الصرفية والصوتية العربية الحديثة (أطروحة دكتوراه): ١٤-١٦.

* وهو أحد الخطوط المصرية المتمثلة بالهيروغليفي والهيراطيقي والديموطيقي , وهذا النوع هو أبسطها من حيث الكتابة , فقد كان يُستعمل في كتابة اللغة العامية , وانتشر هذا الخط في عهد البطالسة حكام مصر بعد الرومان من ٣٠٦ ق.م. إلى ٣٠ ق.م. , ينظر: الكتابات والخطوط القديمة: ١٠٩-١١٠.

٣٣- ينظر: مفتاح اللغة المصرية القديمة: ٢٤-٣١.

٣٤- ينظر: المستشرقون والمناهج اللغوية: ٤١-٤٢.

٣٥- ينظر: المستشرقون والمناهج اللغوية: ٥٠ , ومناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: ١٧٠.

٣٦- ينظر: مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: ١٦٩.

٣٧- ينظر: طوفان نوح الاكتشافات العلمية الحديثة: ٢٧٥.

٣٨- ينظر: إمبراطوريات الكلمة: ٤٩٣.

٣٩- مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: ١٧٣.

٤٠- منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث: ١١.

٤١- ينظر: إمبراطوريات الكلمة: ٣٣.

المصادر والمراجع

١- أسس علم اللغة – ماريو باي – ترجمة أحمد مختار عمر – عالم الكتب – ط٨ – القاهرة ١٩٨٦م.

٢- إمبراطوريات الكلمة تاريخ للغات في العالم - نيقولاس أوستلر - ترجمة د.محمد توفيق البجيرمي - دار الكتاب العربي - بيروت ٢٠١١م.

٣- سر الفصاحة – ابن سنان الخفاجي(٤٦٦ه)- دار الكتب العلمية – ط١ – بيروت ١٩٨٢م.

٤- طوفان نوح الاكتشافات العلمية الحديثة - وليم ريان , و والتر بتمان - ترجمة فارس بطرس - إشراف ومراجعة الأب د. يوسف توما - نشر مجلة الفكر المسيحي وبيت الحكمة ودار البستان للصحافة والنشر - بغداد ٢٠٠٥م.

٥- علم اللغة العام - فريدينان دي سوسور - ترجمة د.يوئيل يوسف عزيز - مراجعة النص العربي د.مالك المطلبي - دار آفاق عربية - العدد٣ - بغداد ١٩٨٥م.

٦- علم اللغة بين القديم والحديث – د.عاطف مدكور – دار الثقافة للنشر والتوزيع – فجالة – ودار التوفيق النموذجية – الأزهر.

٧- العين – الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ه)- تحقيق د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي – مطبعة أسوة – ط٢ – ١٤٢٥ه.

٨- في علم اللغة - غازي مختار طليمات - دار طلاس للدراسة والترجمة والنشر - ط٣ - دمشق ٢٠٠٧م.

٩- في علم اللغة - د.غالب المطلبي - دار الشؤون الثقافية - العدد٢٢٦- بغداد ١٩٨٦م.

١٠-كتاب سيبويه - أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(١٨٠هـ) - تحقيق عبد السلام محمد هارون - مكتبة الخانجي - ط٣- القاهرة ١٩٨٨م.

١١- الكتابات والخطوط القديمة – تركي عطية الجبوري – مطبعة بغداد – بغداد ١٩٨٤م.

١٢- لسان العرب - ابن منظور الأفريقي المصري (٧١١هـ) - دار إحياء التراث العربي - ط٣- بيروت ١٩٨٦م.

١٣- اللغة – ج.فندريس – تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص – المكتبة الانجلو المصرية.

١٤- اللغة العربية كائن حيّ - جرجي زيدان - دار الجيل - ط٢- بيروت ١٩٨٨م.

١٥- اللغة العربية وعلاقتها باللغة الإرتيرية (الجعزية والتجريّة والتجرنيّة) الجذور والامتداد - إدريس محمود حامد موشي - منشورات كلية الدعوة الإسلامية - ط١ - طرابلس ٢٠٠٥م.

١٦- مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي – د.نور الهدى لوشن – المكتبة الجامعية الحديثة – ط١- الاسكندرية.

١٧- المدخل إلى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية – عبد المجيد عابدين – مطبعة الشبكشي – ط١ مصر ١٩٥١م.

١٨- المزهر في علوم اللغة وأنواعها - جلال الدين السيوطي(٩١١هـ)- تحقيق محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي - دار التراث - ط٣ - القاهرة.

١٩- المستشرقون والمناهج اللغوية – أ.د. إسماعيل أحمد عمايرة – دار وائل للنشر – ط٣- عمّان ٢٠٠٢م.

٢٠- المصطلح النحوي - د. يوخنا ميرزا - مطبعة وزارة الثقافة العراقية - ط١- بغداد٢٠١٠م.

٢١- المعجم الوسيط - إبراهيم مصطفى وأحمد

حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد علي النجار - مؤسسة الصادق للطباعة - ط٥- ٢٠٠٣م.
٢٢- معجم مفردات المشترك السامي في اللغة العربية – د. حازم علي كمال الدين – مراجعة د. رمضان عبد التوّاب – مكتبة الآداب – ط١- القاهرة ٢٠٠٨م.
٢٣- مفاتيح المصطلحات في اللسانيات - ماري نوال غاري - ترجمة عبد القادر فهيم الشيباني - دار سيدي بلعباس - ط١- الجزائر ٢٠٠٧م.
٢٤- مفتاح اللغة المصرية – أنطون زكري – مكتبة مدبولي – ط١- القاهرة ١٩٩٧م.
٢٥- المقتضب - أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد (٢٨٥هـ) - تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة - لجنة إحياء التراث الإسلامي - القاهرة ١٩٩٤م.
٢٦- مقدمة في علم اللغة العربية - علي زوين - دار الكتب العلمية - ط١ - بيروت ٢٠١١م.
٢٧- مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة - د. نعمة رحيم العزاوي - منشورات المجمع العلمي - بغداد ٢٠٠١م.
٠ منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث – د.علي زوين – دار الشؤون الثقافية – ط١ – بغداد ١٩٨٦م.
٢٨- المنهج التاريخي والمنهج المقارن في الدراسات الصوتية والصرفية العربية الحديثة – أطروحة دكتوراه – علي حسن عبد الحسين – كلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد – ٢٠٠٩م.
٢٩- نظام الجملة في اللغات السامية - أطروحة دكتوراه - سحر لطفي عقاد - جامعة حلب - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - قسم اللغة العربية - ٢٠٠٢م.

اللهم صل
١٤٣٣